عبقريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه، وربما النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فإذا بهم يردون النصر فيها إلى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة.

كسب بعض المعارك لأن الأقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس.

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق فى طولها على حسب الصفوف.

وفى بعض المعارك كان الفرسان فى الوسط فقيل إن هذا كان من دواعى النصر العاجل، وفى معارك أخرى قيل إن دواعى النصر إنما ترجع إلى قيام الفرسان على الجانبين

وكثيرا ما يقال إن اشتراك الفرسان والمشاة فى العمل كفيل بالغلبة فى بعض الميادين، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال إن تربص الفرسان بمعزل عن القتال إلى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال، وربما إن ظهور الفرسان فى ميدان يضيق عن حركات المناورة جنى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل فى صفوف هؤلاء وهؤلاء..

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر إلى قاعدة موجزة فيقولون كلاما يحسن الإطلاع عليه، ولكنه كلام يقرؤه القائدان فيبوء أحدهما ويبوء الآخر بالهزيمة.

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التى توجز لك البلاغة الشعرية فى كلمات ثلاث وهى: الوزن، واللفظ ، والمعنى. ولا خطأ فى هذا الإيجاز، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب.

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان، وأن القائد الموفق هو الذى يلمح هذه الفروق فيعمد إلى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالقدر اللازم، فلا ينقص أو يزيد، ولا يتقدم أو يتأخر، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق..

وإذا كان كل شىء فى المعركة أحيانا على كذا وكذا من الخطوات فى السبق إلى حومة القتال، وكذا وكذا من الأشبار فى طول الرماح، وكذا وكذا من الحركات إلى اليمين أو إلى الشمال وإلى الأمام أو إلى الوراء، فتفصيل أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل، لأن إثبات الفوارق بين المعسكرين فى الأسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور. وأقصى ما نطمع بالإجمال دون التفصيل..

وإجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال: وهى الشجاعة والنشاط والجلد واليقظى وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير.

كان يضع الخطة فى موضعها ساعة الحاجة إليها. فكان يحارب بالصفوف كما يحارب بالكراديس، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانا بغير كمين، وكان يستخدم التورية[1] والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعى والأحوال وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار والاحتلال.

وعلم أن الخبر قوة وسلاح. فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية يعززها ما استطاع فى جيشه، ويضعضعها ما استطاع فى جيش عدوه.

---

(١) التورية: التمويه والخدعة.

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة، وتشيع فى نفوس أعدائه فيسرى إليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة.

إلى هذا كان يعتمد على قوة الإيمان وهمة الأمل، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفى أثناء القتال، أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع، فيعمل ويقول القول الذى ضرب من العمل، فإذا قال: "إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن الصبر مع النصر" فلست هى أصداء تمر بالهواء، ولكنها هى العز والصبر مائلان للعيان، يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمع وجنان..

وإلى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة فى صدور جنده وأعوانه، فيدعوهم إلى التمايز والتناظر ينفث فيهم من عزيمة الإنسان عزيمة أخرى ن حب الفخار، وخوف المسبة والعار.

ويتخذ من الغيرة على العرض مددا لهذه العزائم التى تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة، فإذا بالرجل الفرد يبلى فى قتاله ما ليس يبليه عشرات..

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد إلى هذا المقتل فى منازلاته للمستبدين والطغاة. فإنهم فى جيوش الأمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون إلى مقام الأرباب من حيث ينحدر رعاياهم إلى مقام القطيع السائم[1]. فإذا أصيب القائد الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست على الوقاية منها، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست من كثرة من الثقة والثبات.

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التى يجمعها "الخبراء" فى عصورنا

(١) المسائم: السائمة هى الإبل أو الماشية التى تترك لترعى حيث شاءت.

هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات..

قرأنا فى كتاب "فن الحرب اليوم"[1] لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء: "عند بحث هذه المسألة ينبغى أن نحضر فى أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة إلا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال، وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع، أى النبل أو السهم أو الرصاصة من جان. والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر. ومجمل ما يقال بعد هذا أن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف، وأن الكردوس أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح الضارب لأن الرماة بالقذائف يحتاجون إلى مدى مكشوف، وإنما يتأتى الضرب فى العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات"

إن خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفته بفواته عنه، لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديته الحربية، فقاتل بالصفوف حيث تعنى الصفوف، وبالكراديس حيث لا تغنى إلا الكراديس

وفى هذا الكتاب أيضا يقول المؤلفون: "يتضح مما تقدم أنه فى حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان: وهما الاستطلاع وكتمان الحركات. والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو، ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك، وتوقع الهجمة من أى موضع تكون"..

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث فيقولون: "وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفى خلالها، وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة، على النظام الذى تتألف به حين تدعى إلى الهجوم".

---

(١) Warfar Today تأليف الأميرال باكون والجنرال فلر مارشال الطيران باتريك بلايفير.

وهذه هى ربيئة[1] خالد للاستطلاع، وميسره "على التعبئة الكاملة" التى يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذى كان يسير عليه، ثم يدخل فى التحام قريب ولا يطيل فى موقف التقاذف بالنبال والسهام..

ونقرأ فى كتاب "الأسلحة وفنون التعبئة"[2] لمؤلفة وتنرنجهام الذى كان محررت لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة: "إن سرعة الحركات وقوة الإصابة وتدبير الوقاية هى الآن - كما كانت فى كل زمان - بعض مفاتيح النصر التى لا شك فيها، فإذا كسبت المعارك أحيانا بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة البارعة، فهذه المزايا تستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى قوة الإصابة أو فى تدبير الوقاية"

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحرمة باقتحام الصحراء المخيفة، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام، ولا يزال واثقا بالوقاية حيثما حارب وظهره إلى الصحراء، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام.

ووضع الخبير الحربى المشهور ليدل هارت[3] كتابا مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه فى قوله: "إن التحرك فى الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة، وفى الحرب - كما فى المصارعة - إنما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل نؤازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادا لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمك. ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة إلا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحو من الأنحاء. وقد يضعف الحسم فى النتيجة مع ذاك. وعلى نقيض هذا ينبأ التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا فى عصر واحد، وفى جميع

---

(١) الربيئة: الطليعة الذى يرقب العدو من مكان علا لئلا يدهم قومه.

(٢) Wintringham: Weapons and tactics

(٣) The Strategy Of approach: by Liddell Hart.

الحروب الحاسمة على التقريب، أن الإخلال بتوازن العدو نفسيا وماديا هو المقدمة التى لا محيص عنها للقضاء عليه" . .

وهذا الإخلال بالتوازن هو الغاية التى كان يتوخاها ابن الوليد، وإما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات، وإما بالمفاجأة التى لا تتوقع بحال من الأحوال، وإما بالكمين الذى يدخل اليأس على العدو فى ساعة حرجة، وإما بالتطويق من حيث لا ينتظر التطويق.

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن، وكل ما يزلزل أقدام الإنسان فى الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم ج الفهم من أقدم الزمان، ولكن القدرة ق القدرة هى معرفة الوقت، ومعرفة الوسيلة، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة، وبهذا دون غيره تتجلى "معرفة" القواد الملهمين. .

وقال خبير حربى آخر هو أثر برنى[1] فى كتابه "فن الحرب" معقبا على حروب الفرس واليونان: "كانت قوة الفرس، وجنودًا قائمة على الخيالة والرماة. وكانت طريقتهم فى القتال أن يمطروا العدو سهاما، ثم يجترفوه بجملة بجملة من الفرسان فى الوقت اللازم، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس ن الميديين، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين. لكناه خابت مع اليونان، وكانت التبعة فى خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية، فإذا ما استطاع الجند الإغريق أن يقربوا - وكل شيء يتوقف على هذا - تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة وروعهم الصغيرة. . "

ولو عمم هذا الخير القول. لوجب أن يقول إن الذى خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذى خيبها مع العرب من أيام ذى قار إلى أيام خالد

---

(١) The Art of: by ArthurBirnie

ابن الوليد، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجنة[1] التى احتمى بها العرب من الرماة ومن الفرسان، بل مت الفيلة فى بعض الأحيان، وقد قيل فى الأمثال الشعبية التى هى أصدق من قواعد الخبراء "الذى تغلب به العب به"، وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندى الذى ينافح عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف فلم يل الفرس ولا الروم إلا فى التحام.

وقد صح هنا رأى وتنرنجهام مؤلف كتاب "الأسلحة وفنون التعبئة" الذى سبقت الإشارة إليه حين قال: "إن بعض الجماعات الإنسانية بطيئة التغير، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب إلى السماء، فإنها تنتظم على سنن فحواها أن التغيير لا ينبغى، وأن العادات المأثورة كلها حسنة قوية، وأن كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان، وربما لاذت بعض الأمم التى هى أقرب إلى التقدم بفترة من فترات الراحة، تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة الحافظة على القديم. فإذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال برزت وفى رءوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها، ولم يغيروا خططهم وآرائهم للانتفاع، بسلاح جديد أو معرفة جديدة، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب، أو لم تكن لهم فيها أصول على الإطلاق، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذى وضع منذ عهد بعيد. وإن هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أصهل من تحطيمها بجيوش الأمم التى يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ"

ولو شاء صاحب هذا الرأى لشمل الدولة الرومانية فيما حكم على الدولة الآسيوية، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون منذ قرون، وهى على عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد.

---

(١) الجنة: (بضم الجيم): الواقية

وجملة القول أن خالدا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناسًا رثت[1] عقائدهم كما رقت ملكاتهم العسكرية، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم فى الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون على مراتبهم فى بديوان التشريفات، وكان خالد يلبى الضرورة عفو الساعة فى ترتيب كل كتيبة وكل سلاح، فإذا بدا له أن الخيالة لا تجدى فى الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات فى أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه فى الدماغ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه فى كره وفره وهجومه ودفاعه.

وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة، فما هى إلا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها إلى قائدها المختار: "تمايزوا أيها الناس"، فإذا عم بعد لحظات متمايزون..

وكانت مادة القتال التى يعمل بها من جند أو سلاح تعنيه وتلبيه. فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود، لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون فى غزواتهم أن يكروا بعد فر، وأن يجتمعوا بعد تفرق، فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب. أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة إذا سقط منها الحجر الأول.. فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط..

ومن ثم نمطا فريدا بين قواد التاريخ، لأنه يمزج الفن بالبديهة، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة، وكان يقتبس ويجدد بالرأى الفطنة كما يقتبس بغريزة موروثه من قبيلة "القبة والأعنة"[2] يصح أن تسمى غريزة الميدان.

---

(١) رثت: بليت.

(٢) كانت المفاخر والمراسم مقسمة على القبائل فى الجاهلية، فكانت لبنى مخزوم (القبة) وهى مجتمع الجيش، و(الأعنة) وهى قيادة الفرسان. ارجع إلى ص٢٣.

وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات، وإن كنا نعتقد أن القائد العبقرى تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح.

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمن القديم تقدمه إلى المرتبة الأولى بين أكبر القواد، ومنهم الاسكندر وبلزاريوس اللذان حربا عودا معدوه فى ميدان كميدانه. فالاسكندر فى وقعة "اربل" هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة، وبلزاريوس فى وقائع أرمينية هزم جيشا فارسيا تقدر عدته أربعين ألفا أو قرابة الأربعين.. والمقارنة بين خالد بن الوليد، وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معا فى هذا الميدان، لأن الاسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفا، وبلزاريوس كان يقود نيفا وعشرين ألفا، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة فى ذلك الزمان؟

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشا أعظم من الجيوش التى تتصدى لها القائدان الكبيران، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو لاح الرومانيين، ولم يكن نصرهما كنصره إلا العاتبة بعدهما كالعاقبة بعده. وزاد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم، ومنهم الرومان فى أكبر الميادين، ميدان اليرموك.

فمكان خالد فى التاريخ العسكرى هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن واشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية. وفيه من ملامح القيادة فى العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة، وأنه كان - كما يقول - قائدا من فرع رأسه إلى قدميه.

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال: اطلبوها. فبحثوا ونظروا فلم يجدوها، فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا فى طلبها حتى وجدوها، فإذا هى خلقة[1] لا تساوى شيئا. فسئل عن ذلك فقال: "واعتمر النبى ﷺ

(١) خلقة: الخلق: القديم البالى.

فحلق رأسه، فابتدر[1] الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته[2] فجعلها فى هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالا وهى معى إلا تبين لى النصر"

رحمه الله! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب. . فما زال معلوما عن كبار الجند أنهم يأنسون إلى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت. وما فى ذلك من عجب، فليس أحوج إلى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء.

وقال خالد فى أخريات عمره: "ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام، أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين، أصبح بهم العدو، فعليكم بالجهاد"

هذا حبيب الحرب الذى يهوها وتهواه. فله منها الصفوة التى لا تصطفى بها أحدًا من الطلاب والقرناء على بغضاء.

***

(١) ابتدروا شعره: تسابقوا إلى الحصول عليه.

(٢) الناصية: شعر مقدم الرأس.